

## التعليم بين التأثير والتأثير في السودان الغربي ما بين القرنين

(5 هـ - 10 هـ / 11 م - 16 م)

الأستاذ: رضوان هواري

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

### الملخص :

تحولت بلد السودان الغربي من مناطق تجارية إلى مراكز للتعليم بسبب توافد العلماء والفقهاء، إضافة للتجار الذين استقروا في حواضرها كتمبكتو، جيني، غانة... باعتبارها ملتقى الطرق والقوافل التجارية.

لقد نزحت جموع كبيرة من شمال إفريقيا ليستوطنوا نهر النيجر والسنغال، ومن بين هذه الجموع المتناثرة عبر القرون هاجر العديد من العلماء إلى هذه البلاد فأسسوا المدارس لنشر العلم والثقافة الإسلامية وكان جلهم يتولون منصب القضاء والإمامة ومنهم من تفرغ للتدريس . فقامت بذلك في السودان الغربي مراكز حضارية ومدارس استقطبت الكثيرين من علماء العالم الإسلامي وطلاب العلم والمعرفة، فأنتجت هذه المراكز علماء نافسوا علماء المغرب والمشرق كأحمد بابا التمبوكتي . وغيره من أفراد عائلته خاصة .

استطاعت جهود العلماء من تدريس وتأليف أن توطد أركان الإسلام فيما وراء الصحراء الكبرى الإفريقية والتي تعرف اليوم بدول الساحل الإفريقي والتي هي اليوم من الدول الإسلامية رغم ما كابدهت من محن في تاريخها الحديث والمعاصر .

الكلمات المفتاحية : السودان الغربي ، الإسلام ، الهجرات ، التجار ، العلماء ،

التعليم .

### Summary :

Recently the regions of the western Soudan have transformed from commercial areas to educational center because of the large number of immigrants coming from North Africa in order to settle down over there. Among those immigrants, there were scholars and scientists who have built mosques and schools to spread culture and

knowledge. Most of the immigrant scholars were judges and imams, whereas, others were teachers. Therefore, an interesting number of cultural centers and schools spread out in the western Sudan region, which has attracted a lot of students and scientists from all the Islamic world.

All these movements brought brilliant scholars such as Ahmed Tembukti and others from his family. Thus, and thanks to the efforts of scientists and scholars, the Islamic basics have been strengthened beyond the large African Sahara, which are named today as the countries of African Sahel with a strong Islamic religion despite the crisis that have passed through along the recent and contemporary history of the region.

**Key terms :** the Western Sudan, immigration, scientists, education, business men.

تمهيد :

عرفت بلاد السودان الغربي تحولاً بارزاً خلال الفترة الوسيطة، وذلك من خلال المتغيرات التي عرفها العالم الإسلامي بشكل عام، كذا التحولات التي عرفتها بلاد المغرب بشكل خاص بحكم أنها كانت بوابة الصحراء الكبرى التي تعد الحد الشمالي لبلاد السودان الغربي. ومما لا يخفى على أحد أن التجارة كان لها الدور الكبير في التأثير على هذه المنطقة، إلا أنها كانت ضمن مجموعة العوامل المؤثرة في التاريخ الحضاري لهذه المنطقة. ولكي لا نغفل دور العوامل الأخرى حاولنا أن نسلط الضوء على عامل لا يقل أهمية عن غيره وهو التعليم، إذ لعب هذا الأخير دوراً بارزاً في ترسيخ وتثبيت الإسلام في هذه الربوع ليكون منطلقاً إلى باقي القارة نحو الجنوب.

ظهور التعليم الإسلامي في السودان الغربي:

جمع المرابطون بين الجهاد ونشر الإسلام في مهمة واحدة، ويرجع الفضل في ذلك إلى " عبد الله بن ياسين "1، كما روي ابن أبي زرع في قوله: " أخذ يركب منه الجيوش، ويشترى السلاح ويغزوا القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء "2. ومن القبائل التي كان لها الدور البارز في نشر الإسلام في غرب إفريقيا قبائل

<sup>1</sup> - نجيب زيبب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج2، ط1، دار الأمير، بيروت، لبنان، 1995، ص 308.

<sup>2</sup> - علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 126.

الطوارق1 أو المثلثين2، وقد كانت هذه القبائل منتشرة على مدى واسع من نطاق جبلي يشرق شمال إفريقيا من الشرق إلى الغرب من غدامس3 جنوب طرابلس، إلى المحيط الأطلسي الغربي، وكانوا ينقسمون بدورهم إلى عدّة قبائل، من أشهرها قبائل: لمطة4 ، لمتونة5، جدالة6، مسوفة7... ، ولعلّ أشهر من قام بهذا الدور كما سبق

<sup>1</sup> - الطوارق: يستوطن هذا القوم من البرابرة في منطقة كبيرة يتجاوز محيطها عشرين فرسخا، وتقع في جوف البلاد على تخوم نوميديا ، وتتميز تربتها بخصوبة نسبية، الطوارق أناس معروفون بخشونتهم، وغلظتهم، يسكنون أكواخا من الجريد مصنوعة من أغصان الأشجار، ينظر: مارمول كريخال، المصدر السابق، ص 130-131.

<sup>2</sup> - المثلثون: أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم يتلثمون ولا يكشفون على وجوههم، كان اللثام سنة لهم، يتوارثونها خدفا عن سلف، وسبب ذلك أنّ ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد، وهم ينتسبون إلى قبيلة لمتونة، إحدى بطون صنهاجة، ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج2، ص3-4. وأيضا حمدي عبد المنعم حسين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1998، ص 38.

<sup>3</sup> - غدامس: منطقة مأهولة ، يوجد بها عدد كبير من القصور الكبيرة، شاسعة تبعد عن البحر الأبيض المتوسط نحو مائة فرسخن تتوفر على ثروات ضخمة من تجاراتها مع بلاد السودان، لا تنبت هذه إلا قليلا من الحبوب ن وتكاد اللحوم تنعدم بها، وإن وجدت بها ما يشتريه الناس بأثمان ضخمة. ينظر: مارمول كريخال، المصدر السابق، ص 173-174.

<sup>4</sup> - لمطة: اللط نوع من الأيائل الصحراوية ذات القرون الحادة، ويقال سميت نسبة له، ينظر: حمادي الساحلي، الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 33.

<sup>5</sup> - لمتونة: أو اللمتونيون وأصلهم من قبيلة حمير بن سبأ ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاة، يسكنون الصحاري الجنوبية، ولهم بطون كثيرة منهم: بنو رتنطق، وبنو زمال، وبنو صولان...، كان دينهم المجوسية قبل الإسلام. ينظر: محمود مقيدش، نزهة الأنظار في عجائب وتواريخ الأخبار، تحقيق: علي الزواوي و محمد محفوظ، مج 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 342. وأيضا بن خلدون، ج6، المصدر السابق، ص 241.

<sup>6</sup> - جدالة: هي إحدى قبائل صنهاجة، واحتوتهم لمتونة، وهم صحراويون. ولهم بطون ضخمة، ويلاهم مما ليل بلاد السودان، ينظر: ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص 7.

<sup>7</sup> - مسوفة: قبائل موطنها في منطقة ما بين سجلماسة وغانة، توصف بأنها مسيرة شهرين (حوالي 60 مرحلة ، 2400 كلم)، وهي قليلة الماء، ينظر: حمادي الساحلي، المرجع السابق، ص 35.

الذكر عبد الله ابن ياسين<sup>1</sup>، الذي اصطفاه وجاج بن زولو اللمطي<sup>2</sup> بطلب من أبي عمران الفاسي<sup>3</sup>، حيث خرج عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم إلى بلاد السودان ، وبقي هذا الأخير ملازما له إلى أن وافته المنية بها سنة 489هـ.

<sup>1</sup>- عبد الله بن ياسين: هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن علي الجزولي ، ولد في قرية تاماناوت في طرف صحراء غانة، وأمه تدعى تينايزا من بني جزولة. درس على يد فقيه السوس وجاج بن زولو اللمطي، ثم رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف، وأقام بها سبع سنوات، وحصل علما كبيرا ، ورجع إلى المغرب مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي عام 430هـ/ 1038م إلى ديار جدالة، فسرى به أهلها، وسموه إمام الحق، وأخذ يعلمهم تعاليم الدين الإسلامي، كان تقياً، ورعاً ، زاهداً، حذقاً، حسن الرأي والتدبير، ذكياً نبيلاً من أهل الفضل ، جريئاً أديباً، مهيباً، قتل سنة 461هـ/ 1029م، ينظر: عبد الواحد المراكشي، وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق: حسين مؤنس، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1997، ص ص14- 18؛ سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص21. وأيضا سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، المرابطون ، صنهاجة صحراء المثلثون في المغرب والأندلس، ج1، ط1، منشأة المعارف ، الإسكندرية، 1998، ص174- 175.

<sup>2</sup>- وجاج بن زولو اللمطي: كان من رجال التصوف، وهو من أهل السوس الأقصى. رحل إلى القيروان وتعلم على يد أبي عمران الفاسي، ثم عاد إلى السوس وبنى بها دارا سماها " دار المرابطين " لطلبة العلم، وقراءة القرآن، كان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه إذا أصابهم القحط، واستسقوا منه، ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج2، ص06.

<sup>3</sup>- أبو عمران الفاسي: ( 368هـ- 978م / 440هـ- 1048م)، ينسب إلى قبيلة عرفجومة الزناتية، كان يحمل إلى جانب اسمع العربي " موسى " اسما بربريا " بجج " ، اسم أبيه عيسى بن الحاج العرفجومي الفاسي، بدأ في طلب العلم بالأندلس ، حيث زامل أبرز الطلاب اللامعين : أبي محمد الأصلي، أبي الفضل أحمد بن قاسم...، ارتحل إلى المشرق مروراً بالقيروان، ومصر، وأخذ عن شيوخها هناك ، وهو في 32 من عمره، وفي مكة تعلم قراءة القرآن عن أبي الحسن بن عمر الحامي المقري وغيره، حيث درس الحديث، ثم عاد إلى بلده المغرب بعد أن دامت إقامته عدة سنوات في المشرق ، وحجّ عدة مرات، درس في القيروان، ثم عاد إلى فاس مسقط رأسه للتعلّم والتضلع في أمور الدين، وقد جمع أبو عمران الفاسي بين الاتجاه السني المالكي والعقلاني المعتزلي، ينظر: سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ، ص164- 171.

<sup>4</sup>- محمد محمود عبد الله بن بيه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين ، ط1، دار الأندلسي الخضراء، جدة، 2000م، ص 90.

وقال ابن الخطيب في شأن ذلك : " ...كان عبد الله بن ياسين 1 قايم بدولتهم، البادي نشر نظمهم، وتأليف كلمتهم، فاجتمع عليه سبعون شيخا من نهبائهم ليعلمهم فانقادوا له انقيادا كبيرا، وتنازل الناس فضخم عددهم وغزا معهم قبائل الصحراء..."<sup>2</sup>.

كما أدت المراكز التجارية في غرب إفريقيا دورا هاما نشر الدين الإسلامي مثل: غانة ، جني، مالي جاو، كانوا... إلى المناطق الوثنية التي لم تستطع أن تصمد طويلا أمام الفتح الإسلامي، الذي بدأ منذ القرن الأول الهجري السابع الميلادي، إثر حملات عقبة بن نافع الذي اندفع إلى غرب إفريقيا<sup>3</sup>، ووصل بلاد التكرور<sup>4</sup>، وأخبرنا بذلك الإمام شهاب الدين الدمشقي في قوله: " سنة ثلاث وأربعين فيها افتتح عقبة بن نافع كورا من بلاد السودان "5، وكان أول من حمل قبائل الطوارق على الإسلام ، حيث كان لإسلامهم دورا كبيرا في نشره بغرب إفريقيا، وجاء بعد ذلك موسى بن نصير ، فاتصل بقبائل المثلثين، فأقبلوا على الإسلام، ثم واصل عبد الرحمن بن حبيب نشره في مناطق الصحراء الكبرى، كما حملت دولتا الأدارسة والعلويين في المغرب الأقصى، ودولة الأغالبة في المغرب الأدنى على عاتقها نشر الإسلام في مناطق غرب إفريقيا<sup>6</sup>، فأخذ ينتشر تدريجيا عبر الأقاليم الصحراوية كلها.

<sup>1</sup> - لما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي عين عبد الله بن ياسين على صنهاجة أبا زكريا يحيى بن عمر اللمتوني، وهكذا تولى أمور الحرب، ولم يكن يبرم شيئا إلا بمشورة عبد الله بن ياسين، ولما استقام لأبي زكريا ملك الصحراء غزا بلاد السودان وفتح الكثير من أقاليمها، ينظر: محمد الأمين محمد، محمد علي الرحمان، تاريخ المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت، ص 114 وأيضاً حمدي عبد المنعم حسين، المرجع السابق، ص 42.

<sup>2</sup> - لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مج 4، ط1، الشركة العصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1977، ص 348.

<sup>3</sup> - عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، تحقيق: احمد بن ميلاد و محمد إدريس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 50.

<sup>4</sup> - شوقي الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، دراسات في تاريخ غرب إفريقيا، مكتبة الإسكندرية، القاهرة، 1998، ص 06.

<sup>5</sup> - ابن عماد الجنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر أرناؤوط، محمود أرناؤوط، مج 1، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1986، ص 232.

<sup>6</sup> - شوقي الجمل و عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، دراسات في تاريخ... المرجع السابق، ص 06.

كانت الحياة العلمية في مدن المغرب الأقصى قد بلغت أوجها في القرن الخامس الهجري، حتى أصبحت مدارس المغرب وفي مقدمتها مدرسة فاس قبلة للعلماء والطلاب، في تلك الفترة مرَّ الأمير يحيى بن إبراهيم بمدينة القيروان، وحضر مجلس الفقيه أبي عمران الفاسي شيخ المذهب المالكي، فأعجب هذا الأخير بالأمير يحيى لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعلّم، فسأله عن بلاده، ومن فيها من خلق وعما ينتحلون من مذاهب<sup>1</sup>، فأخبره الأمير يحيى: " ليس منهم من يقرأ القرآن وهم محبوبون للخير ويرغبون فيه، ويسارعون إليه، لو وجدوا من يقرئهم القرآن، ويدرسهم العلم ويفقههم في دينهم، ويدعوهم إلى العمل بالكتاب"<sup>2</sup>.

فما كاد الفقيه وجّاج يتسلم رسالة شيخه أبي عمران حتى جمع رواد رباطه، وانتدب لذلك عبد الله بن ياسين الجازولي ، وكان من أذكى الطلبة وأحذقهم، ومن أهل العلم والدين والصلاح، فخرج مع يحيى إلى بلاده، وصار يعلمهم الكتاب والسنة، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، إلى أن هداهم الله فتسامح به أهل الصحراء وانتشر عدله في بلاد السودان<sup>3</sup>.

ولم يكد المرابطون يمسكون زمام الأمور حتى سعوا إلى توحيد المغرب والأندلس والسودان<sup>4</sup>، ووفقوا في تنظم البلاد، ونشر المعطيات الحضارية في المغرب كلّه سهله وجبله، وقد ضمت كل المؤثرات الحضارية والقروية لتنصهر في وحدة بين الشمال والجنوب<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا (430- 515هـ/ 1038- 1121م) مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ص 60؛ الناصري، المصدر السابق، ج2، ص 05.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج5، ص 243. وأيضاً ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص122.

<sup>3</sup> - عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص 62.

<sup>4</sup> - ابن أبي دینار القيرواني، المصدر السابق، ص 100- 101.

<sup>5</sup> - الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1986م، ص

غيّر الإسلام الإفريقيين حين اعتنقوه تغييرا تدريجيا شاملا في جميع المجالات، سواء في مجال معتقداتهم و سلوكهم، أو في حياتهم الثقافية والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية...

وقد حدّثنا بذلك أبي فارس الفشتالي في قوله: " لما استولت العساكر الأمامية على مدينة كاغودار مملكة الملك السوداني وقاعدة ممالك سنغاي ومركز الدائرة في تلك الأقطار، ورسخ بها قدمهم ورسد في أرضها قواعدهم أشرفت بأفقها انوار الخلافة، وسطعت الإمامة النبوية، فمزّقت بأشعتها سدف البغي...فابتهجت أرجاؤها وزهيت أعطافها..."<sup>1</sup>.

## 2- توافد العلماء إلى بلاد السودان الغربي:

كان للتجارة دور هام في نشر الإسلام والحضارة في غرب إفريقيا بالرغم من العوائق الطبيعية التي كانت الوصول للقارة الإفريقية، وقد كانت هناك مراكز تجارية بمثابة موانئ يتطلع إليها المسافرون عبر الصحراء، حيث يجدون فيها نبض الحياة، فيستريحون ويستبدلون الجمال الضعيفة المنهكة بغيرها ليستطيعوا مواصلة الرحلة، وفيها يحدث التبادل التجاري والثقافي<sup>2</sup>. ونتيجة لذلك تحولت برد السودان الغربي من مدينة تجارية إلى مركز للتعليم بسبب توافد العلماء والفقهاء، إضافة للتجار الذين استقروا في أحواضها كتمبكتو، جيني، غانة... باعتبارها ملتقى الطرق<sup>3</sup> والقوافل التجارية<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - أبي فارس عبد العزيز الفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر مولينا الشرفا، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، 1972، ص 146-147.

<sup>2</sup> - عبد القادر مصطفى المغيثي، وعباس فيصح الفريري، وسعدية صالح: جغرافية القارة الإفريقية، ط 1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 2000، ص 177-178.

<sup>3</sup> - والتر روندي، أوروبا والتخلف في إفريقيا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990، ص 47.

<sup>4</sup> - لمعرفة الطرق التجارية المؤدية إلى السودان ينظر: هادي مبروك دالي، التاريخ السياسي والاقتصادي... المرجع السابق، ص ص 296-312؛ خيرة بلعربي، المسالك والدروب وأرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي، رسالة ماجستير، قسم تاريخ، جامعة تلمسان، 2009-2010، ص 164-165.

لقد نزحت جموع كبيرة من شمال إفريقيا ليستوطنوا نهر النيجر والسنغال<sup>1</sup>، والذي يهمننا من هذه الهجرات المتناثرة عبر القرون هجرة العلماء الذين أسسوا المدارس لنشر العلم والثقافة الإسلامية وكان جلهم يتولون منصب القضاء والإمامة والمتفرغين للتدريس<sup>2</sup>، وأهمهم:

\* **الفقيه المدرس يحيى**: وهو أخو قاضي ولاته محمد بن عبد الله بن يومر<sup>3</sup>، والفقيه محمد الفيلاي إمام مسجد البيضان بمدينة كوكو<sup>4</sup>، والفقيه المقرئ عبد الواحد الذي كان بعاصمة مالي الإسلامية<sup>5</sup>، والقاضي أبي العباس الدكالي<sup>6</sup>، والقاضي عبد الرحمن التميمي<sup>7</sup>، قدم مع السلطان موسى إلى مالي، وسكن مدينة تمبكت فوجدها حافلة بالعلماء والفقهاء السودانيين، وقد تفوقوا عليه في الفقه فسافر إلى فاس، وتفه على يد الفقهاء الماليين ثم عاد إلى تمبكت<sup>8</sup>.

\* **الفقيه أبو عبد الله محمد بن واسول**: من أهل سجلماسة، وقد استقر بأرض كوكو عدة سنوات، واستعمله خلالها أهل المدينة في خطة القضاء، عاصر ابن خلدون وصادقه وأمدّه بالكثير عن إمبراطورية مالي<sup>9</sup>.

\* **الفقيه عبد الله البلبالي<sup>10</sup>**: الذي قدم مع كاتب السلطان منسى موسى، وكان البلبالي أول من تولى إمامة المسجد الجامع بتمبكت<sup>11</sup>.

<sup>1</sup> - شوقي عبد القوي عثمان، المرجع السابق، ص 68.

<sup>2</sup> - أحمد شكري، المرجع السابق، ص 216-217.

<sup>3</sup> - ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 4، ص 273.

<sup>4</sup> - ميخوت بودواية، المرجع السابق، ص 214.

<sup>5</sup> - القلقشندي، المصدر السابق، ج 5، ص 299.

<sup>6</sup> العمري، المصدر السابق، ص 109. وهو الذي كان يزوده بالأخبار عن تلك المنطقة، أقام بمملكة مالي مدة طويلة حوالي 35 سنة.

<sup>7</sup> - البرتلي، المصدر السابق، ص 206؛ السعدي، المصدر السابق، ص 51.

<sup>8</sup> - السعدي، المصدر السابق، ص 51.

<sup>9</sup> - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 229.

<sup>10</sup> - البرتلي، المصدر السابق، ص 198.

<sup>11</sup> - السعدي، المصدر السابق، ص 8. وهناك شخصيات أخرى ذكرها ابن بطوطة لكننا لا نعلم طبيعة وظيفتها في مالي، وقال في كتابه تحفة الأنظار: "أقامت بمالي نحو شهر وأضافي بها محمد بن عمر من أهل مكناسة، وكان ظريفاً مزاحاً، فاضلاً توفي بها بعد خروجي عنها، وأضافي بها الحاج

إننا نأخذ أسماء الأعلام الذين ذكرهم ابن بطوطة أو ابن خلدون أو العمري بالإضافة إلى من ذكرهم السعدي والبرتلي، ولا توجد لدينا ترجمات دقيقة لهؤلاء الأعلام، بالإضافة إلى الفنانين والأطباء ومنهم:

\* أبو إسحاق إبراهيم الساحلي شاعر الأندلس: المهندس المعماري توفي في تمبكت عام 1346م، وكان السلطان منسى موسى قد تعرف عليه بمكة ودعاه إلى بلاده، وهو الذي أدخل هندسة البناء والزخرفة إلى بلاد السودان، بالإضافة لكونه شاعرا ومهندسا فهو عالم جليل وقد بنا مسجد مدينة غاو إثر عودته من الحج عام 1325م، كما بنا له المسجد الجامع الكبير بتمبكت1.

كان توافد الأساتذة من بلدان المغرب2 إلى السودان الغربي وأخذ شكلا أوسع خلال القرن السادس عشر، فقد عجت بالمدرسين من بلدان شمال إفريقيا، فتوسعت المعارف وزادت في نشاط الحركة الفكرية ومن أهم أعلامها:

\* محمد عبد الكريم المغيلي3: وهو أول من أخضع المعارف الإسلامية في السودان لمحك النقاش، ولأخذ الرد، ودفع العلماء والحكماء إلى الرجوع إلى كتاب

محمد الوجدي التازي، وهو ممن دخل اليمن، والفقير محمد الفيلاي إمام مسجد البيضان".

راجع في ذلك: ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 4، ص 271- 272.

<sup>1</sup> - الناصري، المصدر السابق، ج 2، ص 101.

<sup>2</sup> - منذ القرن الثالث عشر انتقل عدد من علماء ولاتة إلى تميمكتو، وكانوا في أغلبهم من صنهاجة حيث ينتسب أحمد بابا. أما خلال القرن 14 و15 فقد كان كثير من التجار يطيب لهم البقاء ويباشرون على التعليم فيجدون إقبالا كبيرا على دروسهم، إن معظم من ذكرهم أحمد بابا والسعدي كأساتذة لامعين في تمبكت كانوا من أصول مغربية، وسجل محمود كعت كثير من العلماء جاؤوا من توات وأقاموا بتنبكت، ينظر: عبد القادر زيادية، الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 68.

<sup>3</sup> - محمد عبد الكريم المغيلي: ينتسب إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان، لا نعلم تاريخ ولادته بالضبط غير أن وفاته كانت سنة 909هـ، وقد كان من المثقفين وأولي العلم والفكر في عصره، وعلى امتداد القرنين التاسع والعاشر الهجريين أحيط الإمام المغيلي بكوبة من أبرز العلماء وشيوخ الأمة الأجلء آنذاك كالحافظ التنسي(899هـ)، وابن مرزوق الكفيف، ومحمد بن أحمد مرزوق (842هـ)، والشيخ أحمد بن يحيى الونشريسي(914هـ) صاحب المعيار، والشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي(875هـ)، والصوفي الكبير إبراهيم التازي(866هـ)، والشيخ محمد بن يوسف السنوسي(895هـ) صاحب التأليف الكثيرة في العقائد وغيرهم. ووسط هذه البيئة الحافلة

الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووسع دائرة النقاش العلمي بحيث أصبح يشمل مناطق لم تكن العلوم الدينية قد وصلتها على الشكل المبهجي<sup>1</sup>. وعمل على تصحيح العقيدة الإسلامية في السودان الغربي ليصبح أحد أهم الروابط الثقافية والفكرية التي ربطت المغرب الأوسط بالسودان الغربي<sup>2</sup>.

\* صالح بن محمد أندي عمر المعروف بالشيخ العمري: كان من أهل الفضل والعلم وقال فيه السعدي: «مستحرم عند السلطين يشفع للمساكين عندهم فلا يردون شفاعته على كل حال، ألف شرحا على مختصر الشيخ الخليل»<sup>3</sup>.

\* عبد الله بن أحمد بن سعيد: تلقى العلم في ولاته وعاش حتى سنة 1483م، وكان أدبيا وفيلسوفًا ألف كتابا في شرح الشفا للقاضي عياض<sup>4</sup>.

بالنشاط المعرفي ترعرع الإمام المغيلي مترددا على مواطن الدرس معلما ومتعلما في مسقط رأسه تلمسان، ثم الجزائر العاصمة، فبجاية، ثم توات، ثم فاس، منها إلى السودان الكبير، وخلال هذه الفترة أتبع له الاتصال بالشيخ سعيد المقرئ، والشيخ يحيى بن إيدر، والشيخ أبي العباس الوغليسي، والشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي. حل المغيلي بأرض توات سنة 882هـ ووجد اليهود، يومها ضربوا آذانهم في كل كبيرة وصغيرة فاتخذ منهم موقفا. ترك العديد من الكتب والمخلفات أهمها: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، البدر المنير في علم التفسير، تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلطين، تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين، الرد على المعتزلة، شرح الأربعين حديثا...، وبالجملة فقد عد له الأستاذ المقدم مبروك سبعة وأربعين مؤلفا بين مخطوط ومطبوع، ينظر: محمد عبد الكريم المغيلي، المصدر السابق، ص 8-9؛ مبخوت بودواية، المنهج الديني والتعليمي لمحمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني بإقليمي التوات والسودان الغربي ق 9هـ-10هـ، مجلة الفكر الجزائري، العدد الرابع، ديسمبر 2009، ص 62؛ يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية من القرن 16 إلى مطلع القرن 20، درا هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2001، ص 229.

<sup>1</sup> - لحسن مختار، أضواء على حياة الشيخ المغيلي، رسالة المسجد، العدد 2، مارس 2005، ص

89؛ مبخوت بودواية، المنهج الديني...، المرجع السابق، ص 62.

<sup>2</sup> - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 514.

<sup>3</sup> - السعدي، المصدر السابق، ص 32.

<sup>4</sup> - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 115.

\* محمد بن عيسى التلمساني: اشتهر بكتابه الذي حلل فيه شرب الخمر، باعتبار أنها تخلل بالخل، ويقول أحمد بابا التنبكتي بأنه عرض كتابه على بعض شيوخه فأعجبوا بطريقة عرضه وتحليله<sup>1</sup>.

\* أبو القاسم التواتي: جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت، وبني دارا بالقرب من المسجد الكبير كان يستقبل فيها طلبة العلم، وكان محمد أسقيا يصلي وراءه ويطلب دعائه، وعندما توفي في تنمبوكتو عام 1516م كان يوجد بتلك المدينة خمسون عالما من التوات<sup>2</sup>.

- الطلبة الوافدون:

أما العلماء الذين قدموا للمنطقة ودرسوا فيها علوم الدين فهم كثيرون نقتصر على ذكر أمثلة منهم:

\* نور الدين أبو الحسين علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري: العالم النحوي المتوفي عام 724هـ وحل من المغرب إلى بلاد التكرور، وقرأ فيها القرآن ثم قدم إلى القاهرة فأخذ عنه العربية بها جماعة من بينهم جمال الدين الأسنوي الشريف العلوي حسني من مدينة فاس، ذكره البرتلي<sup>3</sup> باسم الشريف الشاب<sup>4</sup> وقال أنه كان حيا عام 1045م وأشاد بعلمه<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج 1، ط 1، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، 2004، ص 176.

<sup>2</sup> - السعدي، المصدر السابق، ص 60.

<sup>3</sup> - البرتلي، المصدر السابق، ص 228.

<sup>4</sup> - نفسه، ص 213-214.

<sup>5</sup> - يقول عنه أحمد بن أمين: "وهو من العجائب، وساق طرفا من قصته وما ظهر على يده من خوارق العادات، وقال إن أهل شنقيط وجود بحر لا ساحل له، وأنه اختار أربعة منهم وركز على تعليمهم، ولما أراد السفر عنهم عاندا إلى بلاده قال لهم تركت فيكم المحمدين، والعدلين يعني بذلك الأربعة الذين يعلمهم. راجع: أحمد بن أمين الشنقيطي، المصدر السابق، ص 578-579.

\* سيدي بن عبد الرحيم1: توفي سنة 866هـ، ذكره السعدي وقال فيه: «كل بلاد لها رجال، ولكل رجال قطب يحكم عليهم بمشيئته والقطب هو سي يحيى»2، توفي سنة 866هـ/ 1461م3.

\* محمد الكابري (نسبة لميناء كابرا): كابرا ميناء تنمبوكتو، ولد في القرن التاسع الهجري، نزل بتومبوكتو ودرس بها، وأخذ عنه الفقيه عمر بن محمد أقيت، والفقيه سيدي يحيى بن عبد الرحيم التادلي، كان معاصرا لعبد الرحمن التميمي، والفقيه أندغ محمد الكبير جد الفقيه سيدي محمود لأمه والفقيه عمر أقيت، ولا ندري متى توفي4.

\* محمود البغدادي: جاء إلى بلدة أهير في بداية القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي، اشتغل بالتدريس، درس عنده الشيخ أبو رويس، الشيخ النولي أحمد بن الفقيه، والشيخ الكامل بن الحاج، الشيخ أحمد رزوق تافس بمعنى قادم من فاس، والولي المكاشف الفقيه الحاج سكاف، والفقيه عبد الله بن تركش، وغيرهم. وقد عمل على نشر الطريقة القادرية في المنطقة والتي كانت أول طريقة تصل إلى منطقة السودان الغربي5.

بالإضافة إلى الطبيب المصري الذي عالج ابن بطوطة عام 753هـ/ 1352م والذي أخبرنا أنه شاهد في تمبكت في قبر أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية وهو سراج الدين بن كويك، وذكر في تمبكت محلة خاصة للبيض فيها الفقهاء والعلماء6 والتجار

<sup>1</sup> - هو سيدي يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء ابن أبي الحسن علي بن عبد الله بن الحبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من علماء وصلحاء تومبوكتو، ينظر: ميخوت بودواية، العلاقات... المرجع السابق، ص215.

<sup>2</sup> - نفسه، ص215.

<sup>3</sup> - السعدي، المصدر السابق، ص51.

<sup>4</sup> - البرتلي، المصدر السابق، ص107؛ السعدي، المصدر السابق، ص47.

<sup>5</sup> - ميخوت بودواية، العلاقات... المرجع السابق، ص217.

<sup>6</sup> - عرف هؤلاء العلماء بالتواضع في عهد الأسقيين، فقد تحدث السعدي عن كثرة الطلاب الذين كانوا يتوافدون على الجوامع في بلاد سنغاي، وأخبرنا عن أخلاق العلماء المدرسين الذين كان يتهافت الطلاب عليهم، فقال في الشيخ الفقيه عبد الله محمد بن محمد بن علي بن موسى عريان الرأس: "وليس له بواب، كل ما جاء يدخل بدون استئذان، يزوره الناس من كل فج، في كل ساعة".

من المصريين وغيرهم، وأنه اكثرى دارا إزاء دار الفقيه محمد بن الفقيه الجازولي بمحلة البيض<sup>1</sup>.

كان التجار يفتدون إلى السودان الغربي للتجارة جنبا إلى جنب مع تبادل معارفهم الثقافية وحضارتهم الإسلامية، ومن ثم فقد جمعوا بين التجارة والتعليم، وكانوا يجتمعون في المساجد ليناقدشوا أمور دينهم ودنياهم، وليبسطوا أصول الدين وأحكامه، ولتفسير ما يصعب على الناس فهمه عن طريق الشيوخ والعلماء عقب الصلوات أو في الدروس المعتادة<sup>2</sup>، وصارت شهرة جامع 3 سنكري تفوق شهرة جامع القرويين في فاس، والزيتونة<sup>4</sup> في تونس.

لقد حمل مسجد سنكري عبء الحركة الفكرية الثقافية والدينية في غرب إفريقيا، وصار لعلمائه دور كبير في نشر الحضارة الإسلامية بين جموع الوثنيين، ولا نغالي إذا قلنا أن المسجد قد قام بدور مصغر لما قام به الأزهر الشريف بمصر، وجامع القرويين بالمغرب<sup>5</sup>.

كان ملوك الدول الإسلامية في غرب إفريقيا في السودان، التكرور، ومالي وسنغاي قد بذلوا أوسعهم في سبيل دعم وتطوير الروابط الثقافية والاقتصادية بين إفريقيا

---

ينظر: السعدي، المصدر السابق، ص- ص 48-52؛ عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص 149.

<sup>1</sup> - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 255.

<sup>2</sup> - عبد الرحمن زكي، تاريخ الدولة الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1961، ص 40-41.

<sup>3</sup> - انتهج البربر سياسة بناء المساجد، كما لجئوا إلى تحويل بعض الكنائس إلى مساجد لما يؤديه من دور تعليمي وثقافي إلى جانب دوره الديني، مكانا لحلقات التدريس والإفتاء والفصل في النزاعات والاجتهاد وغيرها، ينظر: موسى لقبال، تاريخ المغرب الإسلامي، ط 4، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001، ص 154.

<sup>4</sup> - جامع الزيتونة: هو ثاني المساجد التي ذكرها الدباغ في تأليفه. اختطه إسماعيل بن عبيد الأنصاري سنة 63هـ، بينما يذكر موسى لقبال أن مسجد الزيتونة وضع أساسه حسان وأتمه عبد الله بن الحبحاب. راجع في ذلك: أوكيلي مصطفى باديس، انتشار الإسلام في بلاد المغرب وأثاره على المجتمع خلال القرن الأول هجري، رسالة ماجستير، قسم تاريخ الجزائر، 2005-2006، ص 105؛ موسى لقبال، المرجع السابق، ص 85.

<sup>5</sup> - عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 39.

الجنوبية وإفريقيا الشمالية، فاهتموا بالعلماء والفقهاء واستقبلوا الوافدين من جميع الأقطار الإسلامية<sup>1</sup>.

إن الأسس الفكرية التي كانت موجودة في السودان الغربي تقودنا لأن نميز ثلاثة مراحل عبر خلالها التعليم الإسلامي العربي في المجتمعات السودانية وهي:

- المرحلة الأولى: نهض بها الدعوة وسط القبائل والمساجد واستمرت حتى أواسط القرن الرابع عشر، واقتصرت التعليم فيها على العبادات والمعاملات والسلوك الديني.

- المرحلة الثانية: امتازت بتوثيق العلاقات المغربية والمشرقية بالسودان، وأدت جهودها إلى إدخال الثقافة العربية والفنون وخلق مدرسة إسلامية سودانية، وذلك من خلال انتقال علماء الفقه والحديث وجماعة من المهندسين المعماريين إلى السودان الغربي.

- المرحلة الثالثة: تبدأ في أواخر القرن السادس عشر، وقد وسعت المجالات السابقة وصقلتها وأضافت فيها مجالات وآفاق مختلفة تمثلت في الفنون الأدبية الأكثر عمقا وإشراقا وإبداعا كالفلسفة، والمنطق، والتاريخ، والآداب، والإنشاء، والشعر<sup>2</sup>.

وعليه فإن العلماء الوافدين من الأقطار العربية كان لهم كل الفضل في إرساء دعائم أصول الدين الإسلامي في حواضر السودان الغربي، وعملوا جاهدين على نشر العلم والثقافة الإسلامية وبث الوعي في كل أرجائها<sup>3</sup>.

ولم تنحصر جهود الفاتحين في نشر الإسلام على نشاط التجارة فقط بل كانت لهم الغرابة<sup>4</sup>، فرجال العلم وجهودهم لإعلاء كلمة الله واهتمامهم الكبير بغرب إفريقيا جعلهم ينشئون في المنطقة الواقعة بين ورجلان وسجلماسة" دار الدعوة".

<sup>1</sup> - سنكي مودي سيكو، مدينة تمبوكتو... ودورها الثقافي، مجلة المجاهد، ع 10، الجزائر، 1969، مجلة ثقافية تصدرها كل شهر، ص 49-50.

<sup>2</sup> - محمد الغربي، المرجع السابق، ص 510.

<sup>3</sup> - الطيب بن عمر بن الحسين، السلفية وأعلامها في موريتانيا" شنقيط"، عرض لتاريخ السلفية الأشقرية وما له علاقة بذلك من الحركة العلمية الجهادية من دخول الإسلام إلى القطر سنة 63هـ إلى 1413هـ، ط1، دار ابن حزم، بيروت، 1995، ص 225.

<sup>4</sup> - بعد سقوط الدولة الرستمية في تمهت في نهاية القرن الثالث هجري ظل الإباضية منذ ذلك التاريخ يحافظون على كيانهم في المناطق التي استقروا فيها، وقد ساعدتهم في ذلك نظام الغرابة،

اقترن ذكر الكثير من فقهاء الإباضية بغرب إفريقيا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين<sup>1</sup> والفقهاء الذين وردت أخبار زيارتهم إلى السودان الغربي عرضاً أثناء تناول أخبارهم واحتمال ترددهم الدائم على جنوب الصحراء ولم تسجله لنا كتب السير.

لذلك فقد تمكن الإباضية من تجار وفقهاء من تقوية اتصالاتهم بغرب إفريقيا منذ القرن الثامن ميلادي، ولعل تلك المناطق قد اعتنقت الإسلام على يد الإباضية في ذلك الوقت، فقد ذكر الشماخي: «أن بلاد السودان بغانة وما يليها كانت تدين بالمشهد الإباضي حتى تسامعت بهم المخالفون فقصدوها من كل صوب فردوهم إلى مذهبهم»<sup>2</sup>.

ومن المعروف أن المشهد المالكي الذي ساد في غرب إفريقيا ارتبط بحركة المرابطين في الصحراء الغربية في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي<sup>3</sup>، انتشر وتوسع على حساب المشهد الإباضي الذي ساد في المنطقة قبل القرن الثامن الميلادي وظل باقياً في إمبراطورية مالي حتى القرن الرابع عشر الميلادي حيث لاحظ ذلك ابن بطوطة<sup>4</sup>.

#### خاتمة :

وهو مصطلح التزموا به كبديل لدولتهم. وهو مجموعة من التقاليد التي نظمت المجتمع الإباضي منذ دخول الإباضية إلى بلاد المغرب، وقد درست تلك التقاليد وسجلها كبار فقهاءهم بعد سقوط دولتهم، انطلاقاً من مبادئ الشريعة الإسلامية، وأصبحت قوانين التزموا بها، ونظمت حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ينظر فاروق شهبان. المشهد المالكي ودوره في المغرب، مجلة العربي، العدد 292، الكويت، مارس 1983، ص 70-71

<sup>1</sup> - الزهري، كتاب الجغرافيا، تحقيق: محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، 1967، ص 126.

<sup>2</sup> - أحمد إلباس حسين، العلاقات بين مملكة غانة والمغرب العربي بين القرنين 8 و11هـ، رسالة دكتوراه بمعهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، د. ت، ص 58.

<sup>3</sup> - مبروك المصري، المدرسة الفقهية المالكية، مجلة قافية نصف سنوية تصدر عن مديرية الثقافة الإسلامية، العدد الأول 1426هـ- 2005م، ص 97-8.

<sup>4</sup> - أحمد إلباس حسين، دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي، شبكة العماني، الخرطوم، د. س. ن، ص 5-6.

بعد تتمتنا لهذه الدراسة التي حاولنا قدر الإمكان مقارنة موضوع شاسع ما يزال بحاجة للدراسة والتقصي الدقيقين، وما توقفت عنده لا يمثل إلا نقطة من محيط واسع عن منطقة السودان الغربي، إنّ منطقة السودان الغربي لم تكن تملك مؤسسات تعليمية ومراكز ثقافية قبل دخول الإسلام إليها، فكانت تتخبط في دهاليز الجهل والفوضى ولم يكن هناك نظام يسودها ولا قانون يسوس شعوبها.

الإسلام دين ثقافة وحضارة وجميع تشريعاته وعلومه وأخلاقياته تعبر عن روحه لذلك غير أهل السودان الغربي حين اعتنقوه تغييرا جذريا و شاملا في جميع المجالات، سواء في معتقداتهم أو سلوكهم، أو حياتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، والسياسة.

يعود الفضل الكبير لدولة المرابطين ، وخاصة قبيلة لمتونة ومسوفة وجدالة في نشر الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا خاصة في الصحراء الإفريقية عامة، فحركة الجهاد التي تبناها كان لها الأثر البالغ في إحياء وانتعاش الحياة الثقافية والدينية في السودان.

إنّ العلماء القادمين من شمال إفريقيا وإلى غربها كانوا من أبرز وأرسخ العلماء المغاربة في المعرفة، والعلوم الدينية، مما ساعد في إرساء دعائم الثقافة الإسلامية بمنطقة السودان الغربي. وخاصة المذهب المالكي .

كما تعتبر التجارة من أهم العوامل التي كان لها الدور البارز في انتشار وتحسين صورة الإسلام، فقد ساهم التجار في نشر اللغة العربية، وبدا ذلك واضحا خلال التعاملات التجارية، حيث كانت اللغة العربية لغة التخاطب والتعامل بين التجار المسلمين فانتقلت إلى شعوب السودان الغربي لتصبح أكثر فاعلية مما انعكس إيجابا على النشاط الفكري والثقافي الذي انتشر في هذه البلاد.

لقد كان أثر بلاد المغرب الإسلامي بعلمائها واضح المعالم على الثقافة السودانية، حيث كانوا يكتبون على الطريقة المغربية في الخط، وإعجام الحروف، وترتيبها فقد كانت مدارسهم شبيهة بمدارس بلاد المغرب، تدرس فيها المناهج والكتب التي تعنى بالمذهب المالكي على الخصوص، الذي أخذ به السودانيون، كمذهب رسمي لدولتهم، فالتجار والفقهاء المالكيين احتكروا عملية نشر الإسلام الذي عمّ بلاد السودان،

ودعمه حكامهم في إطار توجهاتهم لتواضعه وبساطته ، فضلا على نقل المؤثرات  
الأندلسي